تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مع الدكتور طه حسين فى الفتنة الكبرى :

أخى الأستاذ

أملى الدكتور طه حسين بك فى كتابه « الفتنة الكبرى » الجزء الأول الآراء الثلاثة التالية :

١ — (وسيرى الذين يقرءون هذا الحديث أن الأمر كان أجل من عثمان وعلى وممن شايعهم وقام من دونهم . وأن غير عثمان لو لى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن) ص ٥ .

٢ — (هذه المشكلات الكثيرة التى ثارت من نفسها أو أثيرت أيام عثمان — لا لأن عثمان كان هو الخليفة — بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات من تلقاء نفسه وليثير الناس بعضها الآخر) ص ٩ .

٣ — (ولكن لو سار عثمان سيرة عمر ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس لما كانت الفتنة . ولما احتجنا إلى إملاء هذا الكتاب) ص ١٥٦ .

وإننى لأرى من ظاهر هذه الآراء تضاربها الواضح عند ما يحاول الدكتور تركيز رأيه فى أسباب الفتنة ومشكلاتها . فأرجو من الأستاذ المعداوى أن يسر لنا الأمر ويوضح ما أراده الدكتور ويدلنا على الحقيقة التاريخية فى هذا الحدث المهم فى الحياة الإسلامية — ودمتم عوناً لمحبى المعرفة وطالبى الثقافة الصحيحة .

حسين حسن
معلم المدرسة العربية
العراق — الناصرية

أشكر للأستاذ الفاضل حسن ظنه ، وأجيبه بأن هذا التناقض الذى يبدو له من ظاهر هذه الآراء سرجعه إلى أنها تقف وحدها فى رسالته الكريمة ، دون أن ترتبط بما حولها من شروح وملاحظات تتناول أسباب الفتنة ودواعيها ... ولو ربط الأستاذ بينها وبين ما سبقها وجاء بعدها من تحليل لمقدمات الفتنة ونتائجها لانتفى التناقض الذى يبدوله من ظاهر الألفاظ فيما كتب الدكتور طه حسين ؛ هذه الألفاظ التى تحتفظ بدلالتها المعنوية إذا ماطبقت على ما جاء بكتاب « الفتنة الكبرى » من تفسير لمجرى الحوادث ووقائع التاريخ .

يشير الدكتور طه فى الرأى الأول إلى أن غير عثمان لو ولى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن ، ثم يشير فى الرأى الثالث إلى أن عثمان لو سار سيرة عمر ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس لما وقعت الفتنة ... وقد يبدو هنا شىء من التناقض بين الرأيين ؛ لأن كلمة (غير عثمان) فى الرأى الأول قد تنصرف إلى غيره من صحابة الرسول وفيهم عمر بن الخطاب ، ولأن الدكتور قد قطع فى الرأى الثالث بأن عثمان لو سلك مسلك عمر فى معالجة الأمور لما وقعت الفتنة على هذا الوجه الذى وقعت عليه . الواقع أنه لا تناقض هناك ولا شذوذ ؛ لأن الدكتور يقصد من وراء (غير عثمان) أولئك الذين رشحوا للخلافة بعد مقتل عمر وكان من الممكن أن يليها أحدهم لو لم يقع الاختيار على عثمان ... فلو وليها على بن أبى طالب أوعبد الرحمن بن عوف أوسعد بن أبى وقاص أو طلحة بن عبيد الله أو الزبير بن العوام لتعرض كل واحد منهم لمثل ما تعرض له عثمان من ضروب السخط وصنوف الكيد وفنون الوقيعة أكل ما حدث هو أن عثمان رضى الله عنه قد عجل بوقوع الفتنة بضعفه وتساهله وقلة خبرته بشئون السياسة وأصول الحكم وطبائع النفوس ، ولو قدر لغيره من هؤلاء الذين أتينا على ذكرهم أن يأخذ الأمور بشىء من الحزم والعنف لأبطأت الفتنة فى سيرها بعض الإبطاء ولتأخرت النهاية عن موعدها بعض التأخير ، ولكن هذا كله لم يكن ليحول بينهم جميعاً وبين هذا المآل الذى كان بالنسبة إلى عثمان خاتمة المطاف .

هذا التفسير المقبول يمكن أن نعالج به الشق الأول من الرأى الثانى حين يقول الدكتور طه حسين بأن هذه المشكلات التى ثارت من نفسها أو أثيرت أيام عثمان — لا لأن عثمان كان هو الخليفة — بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات

من تلقاء نفسه وليثير الناس بعضها الآخر ... أتول الشق الأول من هذا الرأي لأننا لانستطيع أن نبرئ عثمان من هذه المشكلات التي أثيرت وكان لطبيعته النفسية والخلقية في إثارتها أكبر أثر وأوفى نصيب . أما تلك المشكلات الأخرى التي ثارت من تلقاء نفسها فأوافق الدكتور طه على أنها لم تثر لأن عثمان هو الخليفة ، بل لأن الوقت كان هو السبب الأول والدافع الأصيل إلى بعثها وإثارتها بعد أن كتمت أنفاسها يد عمر ، وأخمد صوتها حزم عمر وحد من جموحها سوط عمر ... يوم أن كان يدوي فوق الرءوس ويلهب الأجساد !.

بعض المشكلات أثاره الوقت ولم يكن لعثمان يد فيه وبعضها الآخر أثاره عثمان « الخليفة » بضعفه وتسامحه واستسلامه لقوى قرباه ... أقول هذا لأن هناك كتاباً عن « عثمان بن عفان » يطمس حقائق التاريخ حين ينظر صاحبه إلى الفتنة ودواعيها من وراء هذا المنظار الديني الساذج الذي يظهر له عثمان فوق مستوى الشبهات والتبعات ! ما هكذا تعالج القضايا التاريخية بوضعها فوق مشرحة العواطف الدينية ؛ إننا لا نستطيع أن نضع على أعيننا هذا المنظار إلا إذا استطعنا أن نلغي العقل والمنطق حين نتحدث عن هذه الفتنة الكبرى دون أن نقدم النتائج مستندة إلى المقدمات ... موقف عثمان من مقتل الهرمزان ، تدليله لقرابته ، إنصافه المنتمين إليه على حساب الناس ، عزله ابن أبي وقاص عن الكوفة ليحل محله الوليد بن عقبة ، إقصاؤه أبا موسى الأشعري عن البصرة ليضع في مكانه عبد الله بن عامر ، خلعه عمرو بن العاص عن مصر ليخلفه فيها عبد الله بن أبي سرح ، إيثاره الحكم بن العاص طريد الرسول ، إغداقه المال على مروان بن الحكم مفيه المقرب ، خضوعه لتوجيهات معاوية في تق أبي ذر ، اعتداؤه أو اعتداء رسوله على عمار بن ياسر ... كل هذه الأمور وأشباهها قد فرقت الشمل وعصفت بالصفوف ، لأن عثمان كان هو الخليفة ، ولئن كان السخط قد ولد في النفوس هذا الانفجار ، فلأن عثمان قد شارك في الأمر بضعف رأيه وقصور نظره وسقوط هيبته !

أما المشكلة الكبرى التي أثارها الوقت ولم يكن لعثمان فيها ذنب ولا جريرة ، فهي اتساع رقعة الفتوح ، وتدفق الأموال ، وانطلاق الأرستقراطية القرشية من عقالها انطلاق الأسود السجينة قد تخلت عن زجرها قبضة السجان . ولم تكن القبضة الجبارة غير قبضة الجبار العادل عمر بن الخطاب لقد كان عمر يقف أبداً في طريق هذه الارستقراطية التي لا يصدها جشع ولا يحدها طموح ، لأنه كان أخبر الناس بالطبيعة القرشية إذا ما خلي بينها وبين ما تطمح إليه من سؤدد وما تطمع فيه من سلطان ... الدرة في يمينه تخشع لرؤيتها رءوس السادة من قريش والكلمة تحت لسانه تخضع لسطوتها نفوس السادة من قريش : « ألا إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » !

ولكن عمر يموت وتتنفس قريش بعد أن لقيت العواطف المكبوتة ما لقيت من قسوة الكبت ومرارة الحرمان ، وما كان لرجل غير عمر أن يقف في وجه هذه القوة المتحفزة للتوثب والانطلاق في غير حكمة ولا روية ولا اتزان ... لا هذا الخليفة المستضعف ولا هؤلاء الذين قاموا من بعده ليخلفوه ، لأن الأرض لم تظفر بغير عمر واحد لا شبيه له في العدل ولا النظير !

في رحاب الوقت على التحقيق ثارت من تلقاء نفسها هذه المشكلة الرئيسية وما تفرع عنها من مشكلات ، وفي رحاب عثمان على التحقيق أثار الناس وأثار هو ما جد بعد ذلك من أزمات !

رقاع مضحكة عمد السير ريالزم :

يذكر القراء أنني تناولت مذهب السير ريالزم بالنقد في عددين سابقين « من الرسالة » ، حيث تحدثت عنه في مجال الأدب والفن عند عميديه في فرنسا : بريتون وبيكاسو ... ويذكرون أيضاً أنني رميت هذا المذهب بأنه شعوذة فنية لا أكثر ولا أقل ، وبأنه « خبيطة » ولا شيء غير « الخبيطة » ! قلت هذا فتصدى للرد علي في جريدة « البصير » التي تصدر في الإسكندرية أديب لا داعي لذكر اسمه لأن أحداً لا يعرفه ... ولقد هاجمني الأديب الإسكندري في بداية كلمته حتى خيل إلي أنه بمت بصلة القرابة إلى مسيو أندريه بريتون أو أنه على الأقل أحد تلاميذه النابغين !

قال الأديب النابغ بعد تهجمه النابغ : « وبذلك شاء الأستاذ المناوي أن يقضي بجرة قلم على مدرسة فنية ذات شهرة

ذائعة ترتكز إلى مبادىء يدين بها فنانون هم الآن فى طليعة حركة التجديد ، يكفينا أن نذكر اسم زعيمهم (بيكاسو) للتدليل على أهمية ثورتهم على التقاليد القديمة . وبيكاسو فنان معاصر ، مبدع مذهب السير ريالزم ، ولنا إلى تاريخ حياته رجعة . إنما حديثنا اليوم حول موضوع السير ريالزم فى حوار مع (نيكولا كالاس) وهو شاعر يونانى يعيش الآن فى نيويورك ، وقد طبع له فى باريس منذ عشر سنوات كتاب (النقد الفاسق) من أجل ما يتضمنه ما جاء فى موضوعنا .

— ما هى أغراض السير ريالزم ؟

— يرى السير ريالزم إلى التقليل — إن لم يكن التخلص نهائياً — من التناقضات المفضوحة القائمة بين الحلم والحياة المستيقظة ، أو بين الخيال والواقع ، أو بين الشعور واللاشعور . ويرى أيضاً إلى الخروج بالشعر من (غرفات) الشعراء المشهورين إلى عالم واسع الجنبات ، يصبح فيه هذا الشعر ملكاً مشاعاً للجميع ! .

— ولكن ألم يكن الشعر أو التصوير ملكاً مشاعاً للجماعات !

— لم يكن الشعر أو التصوير ملكاً للجماهير على النحو الذى يقصده السير ريالزم . فيما مضى كان الشعر والتصوير مجرد تضليل وخداع للفرد . أما الآن فالسير ريالزم يفهمهما على أنهما تعبير عن أعمق الرغبات التى تختلج فى أعماق الفرد .

— ما هى أهم قواعد السير ريالزم ؟

— الشىء الذى يجب أن يكون نصب أعيننا دائماً هو الحقيقة والحقيقة لا ضير عليها مع التخفى وعدم التصريح ! بل إننا باتباعنا هذه السبيل إنما نساعد على التحلل من القيود التى تكبلنا وهذا يعتبر من أظهر أهدافنا ! .

إلى هنا ونكتفى بهذا القدر من كلمات هذا الشاعر اليونانى الظريف — وأى تحريف أروع من قوله بأن الحقيقة لا ضير عليها من التخفى وعدم الوضوح ؟ لست أدرى كيف تخفى الحقيقة عن أعيننا وأذهاننا ثم يتهيأ لنا القول بأننا قد عثرنا على الحقيقة ، ولست أدرى كيف نعيش فى ظلام الحيرة من الفهم لأهداف المذهب السريالى فى لوحة فنية أو قطعة شعرية ثم يجيز لنا القول بأننا نعمل فى رحاب النور ! أليس من المضحك حقاً أن يذهب السرياليون إلى أن الشعر والتصوير كانا مجرد تضليل وخداع للفرد ، وأن السير ريالزم هو وحده الذى ينهض بهما إلى مستوى رفيع من التعبير عن أعمق الرغبات ؟ ! — تصور أن التمويه ينهض بالوضوح ، وأن المجهول ينهض بالمعلوم ، وأن الشعوذة تنهض بالعقل ، وأن الخيال السقيم ينهض بالمعنى الجميل ! هل تستطيع أن تتصور ؟ لا أظن — اللهم إلا إذا فقدنا نعمة الذوق والشعور ! !

مقوى المرأة المصرية بين الأنصار والخصوم :

تدور منذ أيام على صفحات الصحف اليومية معركة حول مطالبة المرأة المصرية بحقوقها السياسية ، وفى هذا الموضوع قرأت فى « الأهرام » كلمة « موزونة » للأستاذ محمد زكى عبد القادر يقول فيها : « ... وذكرت أنه منذ سنوات دخلت الفتاة المصرية المحكمة وعليها روب المحاماة ، وحسب الرجال أن الفتيات سيهرعن إلى هذا الروب ، ولكن المهنة الشاقة ظلت وقفاً على الرجال ! — لو كنت صاحب سلطان لفتحت أبواب البرلمان ومنصات الوزارة للمرأة ، وأطلقت لها كل عمل تزاوله كما تشاء ، واثقاً أنها ستظل حتى وهى فى أوج السلطان ، يسعدها أن تسمع من رجل كلمة إعجاب أضعاف ما يسعدها أن تبلغ كرسى الوزارة ! » .

هذا الذى يقوله الأستاذ زكى عبد القادر يقرر الواقع بلا جدال ... وكم أود — لضيق النطاق — أن أسأل المطالبين بحقوق المرأة سؤالا واحداً لا أنتظر الجواب عنه : كم فى مصر من المثقفات اللائى يستطعن النهوض بهذا العبء الخطير ويشاركن بثقافتهن الناضجة فى ركب الحياة السياسية ؟

إننى أنظر فلا أرى منهن من تمنيها ثقافتها على تحمل المسئولية الضخمة غير عدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومع ذلك فقد بحت الأصوات من المطالبة بحقوق المرأة فى مصر ... بالله خففوا من هذه الغلواء ، وإذا قال واحد منكم بأن الجامعة يمكن أن تخرج لنا جيلا ناهضاً من الفتيات المثقفات فقد كذب على الواقع الذى لمسته يوم أن كنت فى الجامعة ؛ إن الفتاة المصرية لا تذهب إلى الجامعة طلباً للعلم ... ولكنها تذهب إليها طلباً للزوج !

أنور العداوى

يدرس ، وحتى الثقافة العربية أكثر منها بما درسه وحققه المستشرقون ، ولا قيمة لما عدا ذلك !! وأنا لا أرى أن هناك إنسان متقدم وإنسان متأخر ، وإني أراكم تلوكون كلمة العروبة فمن هم العرب ؟!

ارتفعت درجة الحرارة في المجلس ، وتدفقت الردود تقول :

— أتسأل عن العرب ؟ نحن العرب ... نحن العرب بوراثاتنا التاريخية وما كسبناه ومزجناه بها من الثقافات المصرية ، نحن العرب الذين نتحد في قيمنا الروحية واتجاهاتنا الفكرية والاجتماعية ، ونختلف في كل ذلك عن الغرب . وها نحن أولاء في مجلسنا هذا نمثل ثلاثاً من الدول العربية ، يطبعنا طابع واحد في التفكير والمشاعر ، ونتشابه حتى في الشكل والسحنة ، لا يختلف مصري عن عراقي أو لبناني إلا كما يختلف أبناء الأمة الواحدة من حيث الفروق الفردية ، ولو أننا انتقلنا بكامل هيئتنا إلى مجتمع أفرنجي لأحسسنا أننا غرباء عنه ولتزايل الدم من الدم ...

وليس معنى أن نأخذ العلوم والمخترعات الحديثة عن الغرب أن نفقد شخصيتنا ونفنى فيه . وإذا كنا الآن نأخذ من الغرب علومه فقد أخذ كثيراً من حضارتنا وعلومنا واستعان بها في نهضته الحديثة ، وفي مكتبات أوربا نحو خمسمائة مجلد في الإشادة بالحضارة العربية وما أسدت إلى العالم الغربي .

إننا لا نغلق الباب الغربي بل نحن دائبون على الاتصال بالغرب والاقتباس منه والانتفاع بحضارته ، فلم تقول أنت بغلق الباب الشرقي وقطع الصلة بما عندنا وثقافتنا العربية بما فيها من آداب وعلوم وفنون ؟ ولا شك أننا استطعنا في نهضتنا أن نكون ثقافة عربية حديثة مبنية على تراثنا الثقافي وعلى ما قبسناه من الثقافة الغربية ، ومعيب أن تدعو إلى ما درسه المستشرقون من الثقافة العربية وفي نفس الوقت تدعونا إلى هجر هذه الثقافة فأنت تحرم علينا ثقافتنا وتبيحها للمستشرقين !

هل أن ثقافة الغرب إما علوم أو آداب وفنون ، فالعلوم نتلقاها منه باعتبارها أدوات لتنظيم الحياة وتيسير وسائلها ، أما الآداب والفنون ، وهي أصق بالأرواح والمشاعر ، فنقتبس منها ما يلائمنا لنضيفه إلى آدابنا وفنوننا التي هي الأساس في ذلك لأنها نتاج بيئتنا وصورة حياتنا ومرآة نفوسنا .

وهنا قال الدكتور :

— ما هي فنوننا ؟ هل عندنا موسيقى كالموسيقى العالمية ؟

— فنوننا هي التي نتذوقها ، وإن كان فيها نقص فإننا في سبيل استكماله . ونحن نتذوق موسيقانا ونطرب للجيد منها ولا يضيرنا أن غيرنا لا يستسيغها ، وماذا يهمنا من كلمة « عالمية » ما دام الوصف بها لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة لأذواقنا ؟

— إن الطفل يضرب (الصفيحة) بالعصا ويسر لما يحدثه ذلك من صوت ، فهل معنى ذلك أنه موسيقي راقية ؟

— إن هذا التشبيه يمكن أن ينطبق على الموسيقى الغربية بالنسبة للشرق الذي لا يرى فيها إلا تصديعاً للرءوس .

نحن نسمع مثلا موسيقى عبد الوهاب وغناء أم كلثوم ، وغير عبد الوهاب وأم كلثوم من فناننا المجيدين ، فنتذوق فنهم ونطرب له ، لأنه يعبر عن مشاعرنا ويخاطب قلوبنا ، فهو منا وإلينا ، ولذلك نشعر بقرب الموسيقى الأسبانية من نفوسنا أكثر من موسيقى البلاد الأوربية الأخرى ، لأن الأسبانية تنزع إلى أصل عربي كان في الأندلس . وليس مما يقع أن تحول مشير المذياع إلى محطة أجنبية ، وأم كلثوم تذيع إحدى حفلاتها الغنائية ، لتسمع بدلا منها غناء إحدى الفرنسيات أو الإنجليزيات .

قال الدكتور وهو يتهيأ للانصراف : إن تذوق الموسيقى الأوربية يحتاج إلى تربية وتثقيف .

فسأله أحد الجماعة : ممن أخذ الأوربيون موسيقى (الجاز) ؟

فسكت ، وناب عنه من أجاب : من موسيقى الزنوج ...

ثم انصرف قبل أن يبدي رأيه في تذوق موسيقى الزنوج وهل يحتاج إلى تربية وتثقيف ...

عباس خضر

الاستاذ محمود الخفيف
يقدم
أحمد عرابي
ثمنه ٥٠ قرش